

الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال: جدلية العلاقة بين "التقني" و"الاجتماعي"

أ. سلاف بوصبع جامعة احمد بوقرة بومرداس

الملخص

إن الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال والذي يفترض اندماج تقنية معينة في نسق اجتماعي، يبين عن علاقة جدلية بين هذين الأخيرين تتخذ مسارين متعاكسين يمتد الأول من التقنية إلى المجتمع ليكشف عن تقننة الممارسات الاجتماعية في إطار الوساطة التقنية وفي إطار "تسسيق" الاستخدام يمتد الآخر من السياق الاجتماعي إلى التقنية ليمنحها بعدا رمزيا كاشفا بذلك عن أنسنة التقنية، لكن هذا التعاكس قد يفضي إلى نوع من العلاقة التي تأخذ شكلين يظهر أنهما متعاكسين في الاتجاه ولكنهما مترابطتين من منظور الاستخدام الاجتماعي.

مقدمة:

طالما أثارت تكنولوجيا الإعلام والاتصال الجدل حولها ولا تزال رغم أنه تم إسقاط صفة الجديدة عنها "بعد أن كانت محل إعجاب وافتتان في سنوات الثمانينات، بدأت تتواري ويضمحل تحت مصطلح أكثر حيادية: TIC" (1) بعد تراجع الابتكارات التكنولوجية في هذا المجال واكتفائها فقط بتحسينات تطال الموجود منها من ناحية أخرى انحصار الانبهار بها من قبل المستخدمين وتحويلها إلى أدوات روتينية في سياق الحياة اليومية أو على الأقل أدوات مألوفة في عرف بعض المستخدمين، إذ أنها طرحت في البداية إشكالات إبستمولوجية تتعلق أساسا بتأثير هذه الوسائل على المجتمع والتي تم ترجمتها على شكل نظريات حاولت تفسير هذا التأثير بمستويات مختلفة من حيث الحدة مروراً بالجدل الشهير حول حيادية التكنولوجيا من عدمه، وهل التكنولوجيا هي حوامل ثقافية واجتماعية أم أنها تستطيع بمحددات النسق الاجتماعي الذي تنغرس فيه خصوصاً في المجتمعات التي لا تنتج هذه التكنولوجيا، ووصولاً إلى جدلية أخرى بين التقنية* والمجتمع، خلقها تغيير زاوية معالجة العلاقة بينهما من منظور يكرس تأثيرات التقنية في النسق الاجتماعي إلى منظور يسأل التقنية في بعدها الاجتماعي وذلك بالانتقال من "التركيز على التقنية إلى التركيز على الاستخدامات." (2)

وفي هذا الصدد ترى جوسيان جوي أنه "لم يعد التساؤل بعد حول ما تفعله وسائل الإعلام بالأفراد ولكن التساؤل حول ما يفعله الأفراد بوسائل الإعلام" (3)، وهنا شهد التنظير في هذا المجال ميلاد ما اصطلح على تسميته سوسيولوجيا الاستخدامات وهو تقليد بحثي "ولد من التحليل السوسيولوجي الذي يصف ما يفعله الأشخاص واقعيًا بالأدوات التقنية، هذا التقليد تبلور حول موضوع مفاهيمي يفصل الفئات التحليلية للاستخدام والممارسة والتمثل في السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي" (4) وعلى هذا المقرب تنأسس إشكالية بحثنا التي تتمحور حول تجاذبات العلاقة بين "التقني" و"الاجتماعي" في إطار الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال، محاولين تفكيك محددات اندماج التقنية في النسق الاجتماعي ومظهرات إضفاء البعد الاجتماعي الرمزي على التقنية، ذلك عن طريق محاولة تحليل جملة من العناصر لعل أهمها:

مفهوم الاستخدام في بعده الوظيفي والاجتماعي.

تظاهرات الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال (TIC) وأهم السمات والخصائص التي اكتسبها.

توقع هذا الاستخدام بين تقنية الاجتماعي وبين إضفاء هوية اجتماعية على التقنية .

انعكاسات هذه العلاقة الجدلية على مستويي : التنظير و الممارسة .

وأخيرا محددات الاستخدام الاجتماعي ضمن هذه العلاقة .

وقبل ذلك وجب علينا أولاً أن نؤسس مفاهيمياً للموضوع ، و بداية نحاول تحديد مفهوم استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال هذا المفهوم الذي تظهر صعوبة الإمساك به، من خلال تعدد معانيه إذ أن هناك خلط بينه وبين مختلف المفاهيم الأخرى المرتبطة به عضوياً أو وظيفياً مثل : الاستعمال، الممارسة، التملك... الخ، ومن هنا بات من الضروري محاولة رصد كل هذه المفاهيم للإحاطة بمفهوم الاستخدام فالاستعمال لديه بعداً وظيفياً إذ "يدل غالباً على فعل ظرفي وفردى، ويشير مباشرة إلى مظاهر وصيغ التحكم في الأدوات" (5) في حين يصطبغ مفهوم الممارسة الذي يتداخل كثيراً مع مفهوم الاستخدام بالبعد الذاتي " فحسب مارغريت آليت Marguerite Alet (2004 و 2006) الممارسة تعطي في نفس الوقت طريقة الفعل الفردي لكل شخص (الفعل الخاص)، ولكن بالموازاة أساليب هذا الفعل" (6) في حين ينطوي مفهوم التملك على بعد سوسيوثقافي فتملك فرد لتقنية ما يجب أن يحقق " حسب بروتون وبرولكس Breton et proulx ثلاثة شروط إجتماعية يجب أن تكون لدى الفرد حد أدنى من التحكم التقني والمعرفي بهذه الأداة، وأن هذا التحكم يجب أن يدخل بطريقة مبدعة في ممارساته اليومية، وأن تكون له قدرة تجسيد إمكانيات تحويل أو إعادة الابتكار (Réinventions)" (7) ، وهذا يعني أن الفرد يطور نمطه وتطبيقاته الخاصة للتقنية انطلاقاً من مجالات اهتمامه واحتياجاته.

في حين يشير مفهوم التمثل حسب أبريك 1987 Abric إلى "عملية أو نشاط ذهني يعيد فيه الفرد أو المجموعة بناء الواقعي "Le réel" الذي أمامه ويمنحه معنى خاص" (8) ، أما التمثل الاجتماعي فتعرفه "دونيز جودلي" Denise jodelet ، أنه " شكل من المعرفة المطورة اجتماعياً والتشاركية... والتي ساهم في بناء واقع مشترك لمجموعة اجتماعية" (9) أمام الاستخدام الاجتماعي فهو مفهوم يتجاوز كل المفاهيم السابقة، فهو حسب " قاموس" Robert لعلم الاجتماع (1999): " ممارسة اجتماعية يجعلها القدم والتكرار عادية في ثقافة معينة " (10).

ويعرفه لأكروا La croix بأنه " أشكال من الاستعمال تظهر مع التكرار، على شكل عادات مدججة بشكل كافي في الحياة اليومية فتتحم وتفرض نفسها في مجموعة الممارسات الثقافية الموجودة قبلاً

وتعيد إنتاج نفسها لتقاوم باعتبارها ممارسات خاصة، ممارسات أخرى منافسة أو مرتبطة أو متعلقة بالممارسات الموجودة" (11).

ومن هنا يظهر أن الاستخدام يتجاوز مفهوم الاستعمال البسيط للتقنية إلى ممارسات متكررة تنكسر ضمن مجموعة اجتماعية معينة على شكل أنماط متشازكة اجتماعيا ومستقرة نسبيا في إطار تملك اجتماعي للتقنية يزوج بين فردية الممارسة واجتماعية المعاني والدلالات التي تشكل الإطار المرجعي والدلالي للاستخدام والمعبر عنه بالتمثلات الاجتماعية.

على صعيد آخر يجيلنا مفهوم الاستخدام على قبضه وهو مفهوم للاستخدام الذي بدوره يطرح إشكالية حصره " فغالبا ما ينظر إلى الاستخدام كنقص أو كعلامة على اللامساواة والفجوة الرقمية ... ونادرا ما ينظر إليه كنتيجة لاختيار عقلائي لمنطق الاستخدام" (12) فيبين لاستخدام التكنولوجيا كمحدد رئيسي من محددات الفجوة الرقمية وبين الاستخدام كخيار لأشخاص استخدموا التقنية في وقت ما، ثم تخلو عنها نتيجة عدة عوامل لا يسع المجال لذكرها** يبقى " اللاستخدام أو اللامستخدمين مجموعة من الممارسات والأفراد الذين يتميزون بعدم القدرة المادية أو عدم التمكن العملي لتحصيل فوائد من الإمكانيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي يمكن أن يوفرها استخدام الحاسوب الموصول" (13) وتأسيسا على ما تم ذكره، يظهر أن الاستخدام الاجتماعي للتكنولوجيا لديه بعد اجتماعي رمزي "فالتكنولوجيا لا تعتبر الأداة في حد ذاتها فقط بل أيضا الممارسات التي تخلفها وكذا المعاني التي تولدها، فهي لا تملك فقط قيمة مادية ولكن قيمة رمزية أيضا" (14) هذا البعد الاجتماعي الرمزي الذي يضيفه الاستخدام على التقنية في إطار ما يسمى بالتحويل هو المسافة الفاصلة بين الاستخدام الأولي الموصوف والذي يمثل حسب برونكس " طريقة استعمال التقنية (تعليمات الاستعمال Mode d'emploi) والخطب المرفقة بالتقنية وكذا الحجج الإشهارية والترويجية" (15) والاستخدام الفعلي ينتج عن هامش المناورة الذي يمتلكه المستخدم عند تعاطيه مع هذه التقنية وفقا لطريقته الخاصة مشكلا بذلك أنماط ونماذج خاصة من الاستخدام، " هذه الأنماط التي تستقر في الواقع لا تتوافق والاستخدامات المتوقعة أو الموصوفة" (16)، فالاستخدام الفعلي يتجلى على شكل ممارسات يومية تتشكل في المحيط الشخصي لكل فرد أو ما أسمته جوسيان جوي J.jouet " بالتجربة الاتصالية " و" التي هي في الواقع خبرة العلاقة المجسدة مع التقنية، وهي تعكس السيورة التي يتم من خلالها تكريس المستخدم لعمليات ذهنية وممارسات باستعماله للأداة، ويصنع أيضا من خلالها وبطريقة تجريبية أنماطه الخاصة لاستخدام التقنية" (17) وهذا ما يؤدي إلى شخصنة الاستخدام التي جعلت المستخدم ينتقل من حال السلبية التي يتعرض فيها لمختلف المضامين التي تصله إلى حالة من النشاط والفعالية في التعامل مع مختلف التقنيات ، هذا الانتقال (والذي صاحبه أيضا انتقال موقعة المستخدم

تنظيرياً (عززته التحسينات التي لحقت بالتكنولوجيا وعلى رأسها الواب 2.0 (الواب الاجتماعي) *** التي مسحت تطبيقاته الخط الفاصل بين المرسل _ المستقبل والمنتج _ المتلقي وذلك بتوفيرها العديد من المزايا التقنية التي ذلت الصعوبات المرتبطة بتخزين وبث وإنتاج المحتويات وهذا ما أثر إيجابياً على الثقافة التقنية لدى المستخدمين، فالتعاطي مع هذه التقنيات لم يعد يستلزم مستوى عالي من التحكم التقني " وهكذا وجد الانترنتيون أنفسهم ممقوقون كمنتجي محتويات و مضامين على الانترنت ، هذه التجربة التي بدأت في التبادل وفي المدونات وتكثفت اليوم في الشبكات الاجتماعية والواجهات التشاركية " (18)، إضافة إلى ظهور ما يسمى البرمجيات الحرة (open source) الذي كرس للمفهوم التشاركية والذي ظهر من خلال المنصات التعاونية (wiki) لإنتاج المحتوى ، هذا كله سمح بظهور وتكريس الاستخدام التعبيري " فالمستخدمون يمتلكون خصائص التقنية لإشباع تعبيرهم عن ذاتهم، " (19) على حد تعبير جوسيان جوي من ناحية ومن ناحية ثانية أوجد ما يسمى المنصات السوسيوثقافية (وعلى رأسها الفاييسوك) التي تؤدي إلى استخدامات متنوعة وتسمح بتكوين طريقة جديدة لخلق روابط اجتماعية، هذه المؤسسة الجديدة "nouvelle sociabilité" الناشئة عن استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال وعن الواب التشاركي من شأنها أن تؤدي إلى "مؤانسة عن بعد، مع تأسيس تنظيم اجتماعي افتراضي يعزز العلاقات غير المادية بين المستخدمين " (20) وهذا ما أدى إلى ظهور تقننة الممارسات الاتصالية التي أصبحت وسائلية (باستعمال وسائل تقنية) ومن جهة ثانية ظهور المجتمعات الافتراضية التي تتغذى من العلاقات والروابط الافتراضية التي ينتجها هذا الاستخدام والتي يمكن أن تأخذ أشكالاً ثلاثة ، أولاً أن تكون هذه المجتمعات الافتراضية بديلاً وظيفياً للمجتمعات "الواقعية" ، أو أن تكون مكرسة فحسب للعلاقات والروابط الموجودة في هذه الأخيرة وختاماً أن يكون الافتراضي امتداداً للواقعي أي ملازمة الافتراضي للواقعي ، إذ" يلاحظ michael ostwald أن تطور تكنولوجيا الافتراضي هي امتداد طبيعي للحركات التي تشكل الفضاءات (المجالات الحضارية المجتمعية) كبيئات افتراضية " (21)، ولو أنه ليس هنا المجال لمساءلة مفهوم المجتمع الافتراضي بشقيه سواء كونه "مجتمع" يفترض هيكلية وبنية معينة أو كونه " افتراضي" يحاول التوقع إزاء "الواقعي"، ولكن الأكد أن ما ينتشر الآن هو نوع مما أسماه كاستيل وفليشي (m.castells,p.flichy) "الفردانية الموصولة" "individualisme connecté" (22) وهو شكل جديد من الروابط الاجتماعية التي تركز على الفرد بدل العلاقة بين الأفراد.

والملاحظ على هذا المستوى، تظهر هذه العلاقات على الصعيد الاتصالي في سمات جديدة وأولها العودة إلى النص ، فأغلب هذه الصلات الاتصالية تأخذ طابعاً نصياً وثانيتها ظهور وعاء لغوي خاص يسميه البعض لغة إلكترونية تخلقها جماعات معينة وتتوافق عليها من ناحية ترميزها (كاستخدام

الأرقام، والاختصارات) ومن ناحية دلالات ومعاني هذه الرموز، مشكلة بذلك مرجعية رمزية لهذه الجماعة أو تلك، تقع في مواجحة المرجعيات التقليدية الموجودة.

فالاستخدام الاجتماعي يفرض إذن اضطرابا في الفضاء الاجتماعي، ويمتد هذا الاضطراب إلى علاقة المستخدم بالزمان والمكان بفعل خاصيتين أساسيتين توفرهما التكنولوجيا الإعلام والاتصال وهما اللاتزامنية التي تتجاوز حواجز الزمن، والترحال (التنقل) الذي يجعل التقنية امتدادا جسديا للمستخدم في أي مكان ويجليه على فضاءات مفتوحة تذوب معها اعتبارات الحضور الجسدي المقيد بحدود فيزيائية وهنا نتحدث جوسيان جوي j.jouet عن " حركة مكانية مضاعفة تؤدي إلى نقل عالمه الخاص إلى الفضاء العمومي، والولوج إلى الفضاء العمومي من المنزل" (23)، وهذا ما خلق ذوبانا للحدود بين الفضائين العام والخاص، فالإنترنت مثلا والتي تعج بمواقع المنظمات العمومية توفر للمستخدم، النفاذ المستمر للمعلومات المتوفرة بما نقل الفضاء العام إلى حيز الاستخدام الشخصي، كما أن حسابات المستخدمين في شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة قد انتقلت من كونها حسابا شخصيا خالصا إلى بؤر من النشاطات السياسية والاجتماعية والثقافية أو إلى فضاءات عمومية مثلما حدث فيما يسمى بالثورات العربية في كل من تونس ومصر مثلا.

لا يفوتنا في ختام الحديث عن أبعاد الاستخدام الاجتماعي، أن نخرج على الفجوة الرقمية التي تحيلها على اللااستخدام وعلى الهوية بين المستخدمين و اللامستخدمين التي تخلقها محددات تقنية بعضها شمولي يمثل في ضعف أو عدم وجود بنية تكنولوجية تحتية تؤسس لهذا الاستخدام، وبعضها خاص يتعلق بنقص الإمكانيات المادية للأفراد ومن ناحية أخرى، اللااستخدام محكوم أيضا بدوافع وسات الفرد كعدم التحكم في التكنولوجيا أو الفجوة الجيلية (بين الأقل والأكثر سنا)، فالجيل الرقمي سيتعاطى مع التكنولوجيا بطريقة تختلف عن جيل المخضرمين الذين يعطون لهذه التكنولوجيا قيمة مضافة وليس قيمة أصلية، على صعيد آخر وقياسا على الدوافع النفسية للفرد، يترتب المستخدمون للتقنية بين التكنوفيليا (هوس التكنولوجيا) التكنوفوبيا (رهاب التكنولوجيا) مما يخلق مستويات من العلاقة مع التكنولوجيا تمتد من الاستخدام الاجتماعي إلى اللااستخدام.

اذن، قد تتعد أبعاد الاستخدام الاجتماعي وتظاهراته وساته، ولكن كلما تلتقي في نقطة واحدة، هي أنه يعبر عن علاقة بين "التقني" و "الاجتماعي"، وفي إطار هذه العلاقة المفترضة؛ برزت المقاربات التي تحاول فك هذه الجدلية ولكنها تحولت إلى طرفين نظريين لها: اتجاه يقدم التقنية على أنها حتمية تهمين على سير المجتمع، فكان أنصار الحتمية التقنية (ماكلوهان؛ بيار ليفي) يفسرون التغيرات السوسبيولوجية للمجتمع بعامل واحد وهو العامل التكنولوجي، وهنا تحظرنى مقولة لهيغل 1820 إذ

يؤكد أن " الصحيفة هي الصلاة العلمانية الصباحية للإنسان الحديث " (24)، هذه النظرة التي تركزت وتعمقت خصوصا مع تسارع وتيرة الابتكارات التكنولوجية في المجال، وتؤكد نبوءة ماركوس أن العالم أصبح قرية صغيرة بفعل هذه التكنولوجيات رغم أننا نعتقد أن العالم لم يتحول فعليا إلى قرية واحدة بل إلى مجموعات من التجمعات البشرية بمستويات مختلفة من البني والهياكل التكنولوجية وما انجر عن ذلك من اختلاف في مستويات النفاذ التقني، وبناء على هذه المنظور ظهرت العديد من دراسات تأثير تكنولوجيات الإعلام والاتصال والتي أضفت بعدا خرافيا على هذه الوسائل (مثلا نظرية القذيفة السحرية) ولكن مع هدوء وتيرة الابتكارات التكنولوجية، وبداية استقرار هذه التكنولوجيات في النسق الاجتماعي نسبيا، إذ أنه لا يمكن الحديث عن استقرار كلي لها، فحسب العديد من المفكرين أمثال فيلسوف التقنية " فينورغ" الذي يقول " من الخطأ اعتبار الإنترنت مكتملة وثابتة في حين إنما لم تصل بعد إلى بنينا النهائية في الواقع" (25)، ظهر اتجاه يرفض أن يكون منطق التغيير الاجتماعي منطقا تقنيا، "فالتقنية لا تفرض شيئا" (26) إذن " يجب تجنب إعطاء روح لأدوات لا تملك هذه الروح" (27) ويجب تفسير التغيرات السوسولوجية بمنطق اجتماعي صرف حسب مفكري الحتمية الاجتماعية .

وبين هذا وذاك حتى نتجنب الدخول في نقاش عقيم لا يسمن ولا يغني من جوع، علينا " التخلص من فخين الاستيمولوجيين في الحتمية التقنية التي تفسر المتغيرات السوسيوثقافية بعامل واحد: العامل التكنولوجي ومن جهة أخرى فخا مائلا وهو الحتمية الاجتماعية والتي تحصر التغيرات في علاقات التحكم (السيطرة) بين الفاعلين الاجتماعيين" (28); والتسليم بوجود علاقة ثنائية بين التقنية والمجتمع، وأن كلا من العنصرين يتأثران بتجاذبات هذه العلاقة، فاندماج تقنية ما في النسق الاجتماعي محكوم بمحددات تتراوح بين خصائص العرض التقني وبين المرجعيات السوسيوثقافية للمستخدم وكذا سياقات الاستخدام، هذا الاندماج والذي يساهم فيه وبصفة كبيرة ديمقراطية الأجهزة الاتصالية بعد انخفاض أسعارها وصغر أحجامها، قد تظهر في أربعة أنماط من العلاقة بين المستخدم والجهاز توجزها أكريش " (Akrich, 1998) فيما يلي :

الإزاحة (النقل) Déplacement: وهو أن يغير المستخدم الاستخدامات دون أن يدخل تغييرات رئيسية في الجهاز التقني،

التكيف Adaptation: وهنا يغير المستخدم في الجهاز ليناسب استخداماته دون المساس بالوظيفة الأصلية للأداة،

الامتداد أو التوسع: وذلك بإضافة عناصر للجهاز تسمح بإثراء قائمة وظائفه,

التحويل *Détournement*: ويعني استخدام الجهاز لغرض ليس له علاقة بالاستخدامات المتوقعة, "(29)"

هذه الأنماط والتي تعبر عن العلاقة المباشرة بين المستخدم والتقنية, ولكنها تتجاوزها لتكشف عن هامش المناورة الذي يملكه المستخدم _ كما ذكرنا سابقا _ وهذا يجعلنا على فكرة تعدد مستويات استخدام التقنية "فالسؤال يمكن أن تعتبر كأدوات أو كرمز اجتماعية أو كأجهزة, هذه المنظورات الثلاث تتعلق بمفاهيم مختلفة من الاستخدام" (30) على حد تعبير شومبا P.Chambat, فمن المنظور الأول نكون نتحدث عن استعمال وظيفي أداتي للتقنية ثم يصبح هذا الاستخدام من المنظور الثاني تعبيراً عن حالة اجتماعية آخذاً آنذاك بعداً رمزياً, ليصبح بحسب المنظور الأخير تحكماً في التقنية موسوماً بالمعايير الاجتماعية, هذه المفاهيم الثلاثة للاستخدام قد تظهر متفردة في أنماط مختلفة من الاستخدام أو قد تأخذ منحى تطوري فكل مفهوم هو تأسيس لما يليه فالاستخدام لا يأخذ شكلاً اجتماعياً بصفة مباشرة بل يمر بجملة مراحل تتمثل فيما يلي :

الخيال الجمعي والمناورات الكبرى (الصناعية والسياسية) التي ترافق إطلاق تقنية والتجارب الاجتماعية المحتملة, أما المرحلة الثانية فهو الزمن الذي يدخل فيه المنتج أو الخدمة حيز الاستعمال الفعلي, ويعطي غالباً نتائج إعادة إنتاج أنماط سابقة مع غياب الابتكار الاجتماعي وفي المرحلة الثالثة وحدها بعض الابتكارات تتكشف خلال عقود من الزمن عن كونها محفزات للتغيير في البنية الاجتماعية والقيم والممارسات اليومية. "(31)"

وهذا ما يجعلنا على الجدل الذي خاض فيه العديد من الباحثين عن العلاقة بين التجديد التكنولوجي والتجديد الاجتماعي فمثلاً نجد برولكس S; Proulx يتساءل مشيراً إلى الانترنت: "يتعلق الأمر بلا جدال بتغيير تقني, فهل سيثير هذا التغيير نفس القدر من التحول الاجتماعي للاستخدامات" (32), هذا التساؤل المشروع والذي يمكن أن تأخذ الإجابة عنه صيغتين, أولاًها "تقنة اجتماعي" وثانيها "أسننة التقنية" مع إمكانية امتدادها إلى صيغ توافقية أخرى.

إن التقنية ليست حيادية فهي وعلى حد تعبير توسان "بمثابة حصان طروادة تكنولوجي يجلب معه قلقاً كدلالة على التوتر بين التطلعات إلى نوع من الحداثة, والمحاوف التي تثيرها" (33) فبعد اندماج تقنية ما في النسيج الاجتماعي والثقافي لمجتمع ما ستحمل معها جملة من القيم التقنية أو ما أسماه برولكس العقلية التقنية *Rationalité technique* (34) كالفعلية والسرعة والكفاءة والدقة والنظام

وغيرها من القيم خاصة تلك المتعلقة بتوصيف التقنية كناقلة أو جالبة للتطور والحدثة التي دأبت الخطب المرفقة بهذه التكنولوجيات والمروجة لها على الجمع بينهما (بين التكنولوجيا والعصرية) سواء على الصعيد التسويقي والترويجي باعتبارها أضحت من أضخم الصناعات الموجودة حاليا، أو على الصعيد السياسي، عندما تحاول سلطة رسمية أن تقدمها على أنها الحل الوحيد للوصول إلى ركب التطور، وعلى صعيد آخر وبما أن التقنية هي حوامل ثقافية واجتماعية، سنتقل قيم النسق الذي أنتجها في حالة إدماج تكنولوجيا في مجتمع لم ينتجها، وهنا سيطرح الإشكال الشهير بين الأصالة والمعاصرة !

من ناحية أخرى "إن الاندماج الفعال لتكنولوجيا الإعلام والاتصال في نسيج العلاقات الاتصالية يسبب تقننة الممارسات الاجتماعية" (35)، فمثلا الاستعاضة عن اللقاء الشخصي بالحديث عبر وسيلة اتصالية (الهاتف، برمجيات الهاتف...إلخ) وهذا ما سيعزز المخاوف من فقدان أنسنة الروابط الاجتماعية ويخلق فردانية تستعيز عن العلاقات الاجتماعية بأشكال جديدة من التبادل والتفاعل الاجتماعي، ويكتسي المستخدم هوية افتراضية خلال ذلك قد تبعد أو تقترب من هويته الأصلية، أو يتجاوز ذلك إلى تعدد هوياتي، بحثا عن إشباع رغباته في التموضع في هذا العالم عن طريق التقمص الهوياتي أو هروبا من واقع مرفوض أو حتى تنفيسا عن وضع غير مرغوب فيه.

فهل سيتم تجاوز الهويات بمفهومها الجماعي لصالح هوية جديدة عابرة للحدود أو على الأقل هوية تترأى شيئا فشيئا في العالم الافتراضي؟ وهل سنمتلك تكنولوجيات الإعلام والاتصال لخلق هويات جديدة تتجاوز الموجود منها، أو لتفعيل جزء مغيب من هويتنا لأي سبب كان؟ أم وبسبب تسلطها كوسيلة للتأكيد الهوياتي .

هذه التساؤلات وغيرها التي أثارها العلاقة بين الهوية وتملك تكنولوجيات الإعلام والاتصال والتي تختلف أو حتى تتعارض أحيانا الإجابات عنها بحسب المنطلقات النظرية والمنهجية لكل باحث، شكلت مواضيع بحثية قائمة بحد ذاتها لا يسعها المجال هنا .

ترافق كل ذلك مع تغيرات هامة في الجانب الثقافي، إن نلاحظ تنامي نمط جديد من الثقافة، يضعه البعض في مواجهة ثقافة المطبوع ويضعه البعض الآخر كبديل محتمل للأساق الثقافية والأطر المرجعية الموجودة، وبين هذا وذاك، يبقى أن المستخدم الذي لا يمتلك ثقافة رقمية أو "الأمي إلكترونيا" سيعيش مجهل محيطه الخاص، وسيجد نفسه في اغتراب مزدوج من جهة، هو لا يتحكم في محيطه الخاص ومن جهة ثانية، غياب هذا التحكم يضعه اجتماعيا في حالة تبعية دائمة للمنظمات أو الأفراد الذين يمتلكون المهارات التي تنقصه" (37)، أما المستخدم الذي يمتلك هذه الثقافة و"يوغل" في

امتلاكها مغيبا بذلك نسقه الثقافي الموجود أصلا ومنتجا فعلا تنافسيا جديدا يتغذى من مرجعيات، قد تختلف عن المرجعيات السوسيوثقافية والمعرفية التقليدية، مما قد يخلق نوعا آخر من الاعتزاب، اغتراب ثقافي، وحتى قيمي، وهنا تعود العلاقة الجدلية بين التقنية والمجتمع للظهور، فحسب العديد من الباحثين التقنية "لا تنتشر في فراغ اجتماعي، وهذا الانتشار لا يحصل عن طريق تغيير جذري، بل يتداخل مع ممارسات قائمة، يأخذها بعين الاعتبار أو يعيد تهيئتها (تطويرها)" (38). فاندماج تقنية في نسق اجتماعي قد يكرس الممارسات والأنماط القائمة أو يغيرها أو يخلق ممارسات جديدة، إضافة إلى جملة الدلالات التي يولدها هذا الاندماج، والتي تتشكل عن طريق الاستخدام، وهنا "يقترح مورلي فهم التكنولوجيا كنظام تقني ومادي واجتماعي وثقافي يجمع بين الأطر، الاستخدامات والروابط." (39)

إن أسسنة التقنية مرتبطة بإضفاء أبعاد سوسيوثقافية عليها، فكل تقنية تمتلك هوية أولية مستمدة من خصائصها التقنية ومن الاستعمال المحتمل الذي يمنحه لها المصمم، ومع إدراجها في نسق اجتماعي معين، محاطة بجملة من الخطب المرفقة بها (سواء كانت ترويجية تسويقية أو سياسية رسمية) التي تمنحها دلالات معينة لترسم لها تمثلات على مستوى الخيال الجمعي ولتترجم على شكل ممارسات يومية للمستخدمين محكومة بخلفياتهم السوسيوثقافية وبسياقات هذا الاستخدام من جهة ثانية، وهذا ما يمنح التقنية بعدا رمزيا وعمقا اجتماعيا على شكل هوية رمزية اجتماعية، فالفاعل التقني كما يراه فليشي "مثل أي فعل إنساني، لا يستطيع أن يكون موجودا دون أن يأخذ شكلا رمزيا" (40)، وهذا ما يحيل على مستويي استخدام التقنية واللذان عبر عنها دائما فليشي "بالإطار الوظيفي « cadre de fonctionnement » الذي يحيل على وظيفة الأداة أو إلى الاستخدام التقني وإطار الاستخدام « cadre d'usage » والذي يعكس الاستخدام الاجتماعي، ويؤدي الربط بينهما إلى تشكيل إطار سوسيوثقافي جديد" (41).

إن الاستخدام الاجتماعي إذن يضيف على التقنية جملة من الدلالات والمعاني وينقلها من شكلها التقني البحث إلى أداة اجتماعية تترجم في ممارسات يومية محكومة حتى تصطبغ بصفة اجتماعية - بما أسماه بيريو بمنطق الاستخدام "أي افتراض وجود أنماط متماثلة للتشغيل عند مختلف المستخدمين" (42) تنشأ من تكرار ممارسات معينة، وتكتسب صورا وتمثلات اجتماعية في إطار بيئة الاستخدام، فكل استخدام يتحدد بخصائص النسق الذي يبني فيه، هذا البناء الاجتماعي للاستخدامات يستلزم لتحليله ما أسماه بركولكس S.Proulx بنوعية اجتماعية "constructivisme sociale" والتي تعني تحليل الأدوات التقنية كبناءات اجتماعية" (43).

ختاما وتأسيسا على ما تقدم وفي إطار نمطي الوساطة المجسدة للعلاقة بين "التقني" و"الاجتماعي" (تقنية الاجتماعي وأسنة التقنية) يظهر جليا أن الاستخدام الاجتماعي للتقنية، محكوم بمحددات التقنية في الحد ذاتها وما تجلبه معها من قيم وانعكاسات من جهة ومحددات النسق الاجتماعي الذي تنبني فيه هذه الاستخدامات، متجسدة في جملة من الممارسات المسبقة (من السياق) بإطار اجتماعي يعطي هوية رمزية لهذه التقنية وعليه "إذا كانت تكنولوجيا الاتصال تلعب دور المنظم في الإنتاج الاجتماعي الذي يندج في الوقت نفسه أسنة هذه الأدوات". (44)

الهوامش:

1. Pierre Chambat, «Usages des technologies de l'information et de communication(tic): évolution des problématiques »,tis,vol6,N°3,1994, consulté le 20/12/2015,
2.]http: / basepub .douphine.fr. bitstreamhande123456789/0991.[
3. *فضل استخدام كلمة تقنية بدل تكنولوجيا الإعلام والاتصال لإضفاء البعد الوظيفي المادي عليها.
4. Florance Millerand, « Usages de NTIC: les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation »1ere partie. Mise en ligne 1998, consulté le 12/10/2012. [http: // commposite.org/v1/98.1/articles/ntic_1.Htm].
5. Jouet Josiane, « Retour critique sur la sociologie des usages », in réseaux 2000, volume 18 N°100, mise en ligne 2000,consulté le 13 /04/2016,[http:// www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/reso-0751-7971-2000-num-18-100-2235].
6. Serge proulx, « La sociologie des usages, et apres ? », xviii congres international des sociologues de la langue française, Actes des travaux de groupe de travail « sociologie de communication », congres AISLF, Istanbul,7 au 11 juillet 2008. Consulté le 18 /04/2009, [http://w3.aislf.univ-t/se2.fr].
7. Jean-luc Rnaudo, « Approche subjective du non-usage »,Recherches et éducations 6 juin 2012, mise en ligne 16, octobre 2012, consulté le 10 /01/2015, [http:// recherches uductions. Revues.org/1055].

8. ibid.
9. Feirouz Boudokhane, « Cmprendre le non- usage technique : réflexions théoriques » mise en ligne le 16 Octobre 2006, consulté le 10 Mars 2014, [<http://w3.U-grenoble3. Fr/ les- enjeux/2006>].
10. Michele Jouet Lepors, « la théorie des représentation sociales » mise en ligne 2002, consulté le 11 /06/2015,[www.Cadredesante.com- representation – sociales – Mjlp].
11. Véronique Truchot , « Les représentations » . mise en linge 2008, consulté le 8 Mars 2015, [<http:// www.Psychologie- Sociale. Com/ index. Php ?option= com- content &tas=view& id= 43 &themid= 28>].
12. Doudou sy Audit, « Modèle d'analyse des usages de tic de S. Proulx », mise en ligne le 03.06.2009, consulté le 14.01.2015, [<http:// www.slidesearchengine, com/ slide/ modele- d- analyse- des- usages- des- tic- de- s-1- proulx>].
13. La croix (1994,147) dans Florance Millerand, op. cit.
14. Cathia Papi, « Cause et motifs du non-usages de ressources numérique », recherche et éducations [en linge]6, juin 2012, mise en ligne 16 octobre 2012, consulté le 10 janvier 2014,[<http://rechercheséductions,revues.org/1074>].

15. **لمزيد من التفاصيل أنظروا : (Feirouz Boudokhane, op,cit).

16. Fabien Granjon, « Le non- usages de l'internet : reconnaissances , mépris et idiologie », Question de communication(en

- ligne)18/2010, mise en ling le 1/12/2012,consulté le 21/12/2014[
http:// questionsdecommunication, revues. Org/410].
17. Flarance Millerand, « David Morly et la problématique de la réception. »1997 consulté 30/2/2013,[www.composite. org/.php/ revue/ article/download/8/7].
18. Serge Proulx, « Pour comprendre l'usage des objets communicationnels,(re) penser le constructivisme singe, culture et lien social a l ère des réseaux »2006, consulté le29.04..2016 [docplayer.fr/4727979- pour comprendre – l'usage – des – objet- communicationnel-re- penser-le- consterctivisme.html].
19. Françoise Paquienséguy, « Entre gamme d'usages, dispositifs et personnalisation : qu'est devenu l'usage prescrit ? » septmbre2006, consulté 07 /03/2015[www.observatoire- omic.org/pdf/ paquienseguy- gamme- usages- dispositifs- personnalisation] .
20. Josiane Jouét « Pratique de communication et figures de médiation» Reseaux,1993,v11 N°60.consulté le13/01/2015. [http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/ article/reso- 0751-7971-1993-nun-11-60-2369]
21. ***هناك العديد من المفكرين من يرفض تسمية الواب 2,0 ويفضل الواب الاجتماعي على اعتبار أن هذا الأخير يشير إلى البعد الاجتماعي الذي أضحت تتميز به الانترنت في مقابل البعدين الأيديولوجي والترويجي الذين ينطوي عليها المصطلح الأول .
22. Françoise Paquienséguy, « Multimédia et web 2,0 : entre pratiques éditoriales et industries créatives », les enjeux de l'information et de communication ,N°12/2,2011/consulté le 28.03.2016,[

- lesenjeux.u- Grenoble.Fr/2011-dossier/ paquienseguy- intro/ paquienseguy.pdf].
23. Jouet,1992,p181, dans fabien Granjan, op.cit.
24. Fathllah doghmi , «Les processus de changement aux nouveaux liens sociaux » mise en ligne 23 Janvier 2015 ,consulté le 28 Aout 2015,[<http://rfsic.revues.org/1366>].
25. Serge Proulx et Guillaume Latzko- tolh, « La virtualité comme catégorie pour penser le social : l'usage de la notion de communauté virtuelle », sociologie et sociétés, vol.32.N°2.2000, consulte le 30/12/2014,[<http://id.erudit.org/iderudit/001598ar>].
26. Johonnes Karine, « La formation du lien social à l'épreuve des réseaux et des communautés virtuelles ».XVIII congres international des sociologues de la langue francaise,op,cit.
27. Florance Millerand, « Usages de NTIC : les approches de la diffusions, de l'innovation et de l'appropriation »2eme partie, mise en ligne 1999, consulté le 25 /05/2008,[<http://composite.org/v1/99.1/articles/ntic-2htm>].
28. فرانسيس بال، " المديا"، تر:د. فؤاد شاهين) لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008) ص 25 .
29. Andrew Feenberg, « Vers une théorie critique de l'internet. » tic et société(en ligne) vol/8,N°1-2, mise en ligne le 31 mais 2014, consulté le 10 janvier 2015,[[http:// ticetsociete. Revues. org/1382](http://ticetsociete.Revues.org/1382)].
30. فرانسيس بال،مرجع سبق ذكره، ص 9 .

31. Gilles Pronovost, « Etude exploratoire de nature qualitative sur les pratiques culturelles des jeunes dans le contexte de l'univers technologique actuel » mise en ligne juin 2011, consulté le 14.02.2016, [http://www.ncc.gouv/qc.com/./survol18-juin 2011.pdf].
32. Serge proulx, « Usages des technologies d'information et de communication, reconsidérer le champ d'étude ? » mise en ligne janvier 2001. consulté le 28 octobre 2013, [http://www.er.uqam.ca/nobel/grmnob/drupal5 .1 :proulx_2001 .pdf].
33. Serge Proulx, «Penser les usages des tic aujourd'hui : enjeux, modes ; tendance, »2005, consulte 10 /03/2012, [Serge proulx.uqam.ca/wp/-content /uploads/2010/12/2015-proulx-penser- les- usa-13.pdf].
34. Pierre Chamdat, op,cit.ibid.
35. Serge Proulx, « Penser les usages des tic aujourd'hui : enjeux, modèles, tendene»,op.cit.
36. Toussaint, 1992,p131 dans : Florance Millerand,« Usages de NTIC, les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation » ;2eme : partie.
37. Serge proulx, «Penses les usages des tic aujourd'hui : enjeux, modèles, tendance»,op.cit.ibid.
38. Josiane Jouét ;op ;cit.

39. Serge Proulx, « Trajectoires et l'usage des technologies de communication, la formes d'appropriation d'une culture numérique comme enjeux d'une société du savoir »,2002, consulté le 13 /05/2011 ,[<http://www.sergeproulx.info>].
40. Pierre Chambat, op,cit.
41. Florance Millerand, « David Morley et la problématique de la réception »,op,cit.
42. Patrice Flichy, «La place de l'imaginaire dans l'activité technique: le cas d'internet», réseaux 2001/05, n°;109,mise en ligne 31 Aout 2006, consulté le 20/12/2015, [<https://www.cairn.info/revue-reseaux-2001-5-page-52-htm>].
43. -Florance Millerand, « Usages des NTIC, les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation » 1ere partie, op,cit.
44. Jaques Perriault, 1989, p203, dans, ibid.
45. Serge Proulx, « Pour comprendre l'usage des objet communicationnels: (re) penser le constructivisme », op,cit.
46. Josiane Jouet, op,cit.